الكتاب المحروق

"بعض الكتُب تستحقّ الحَرق إذَا كَثُر ضررها"

قالت مريم ليوسف: ما حقيقة الكتاب المحروق الذي في سَلَّة القمامة؟

أجاب وزفرة تفصح عن تأفف وألم حاد:

كنتُ مشغولا بكتابة رو اية حول السّلطة والعرش، وكنتُ قد أفرغتُ كل وقتي، وطاقتي، وحُبّي، ولذتي..لهذه الرو اية. اخترتُ شخوصها بعناية فائقة، وكنتُ أخطّط لمسارات الحكي والسرد في كل مرة. كان كل شيء في مستوى عالٍ من الدقة والتخطيط.

زوجتي أعانتني بصبرها، وإعداد فناجين القهوة، وامتصاص آلامي، وصرخاتي. ظلمتها كثيرا. لقد كنت أنانيا حين تركتها تنام في غرفة و أنا في غرفة رغم جِدّة زواجنا. كان بإمكانها أن تخونني مع رجل آخر في غرفتها و أنا منهمك في الأوراق والكتب. لكنها لم تفعل. بل صبرت، و انتظرت على أحر من الجمر أنهي هذا العمل.

ذات أمسية ثقافية، دعيت إليها، لاقيت صديقا لي. كان هو الآخر من الكتاب الذين ذاع صَيْتُهم. تبادلنا الأفكار حول أعمالنا الجديدة، ومشاريعنا التي في الأوراق، وعلى مكاتبنا، وفي أذهاننا. ولما حكيت له شيئا من مشروعي الذي هو رو اية "السلطة والعرش"، قاطعني قائلا: "لن تجد أحسن من رو اية قرأتها في الأسبوع الماضي". مدّ يده إلى حقيبة لا تفارقه، واستل منها كتابا

صغيرا نِصْفُ غلافِه أبيض، ونصفُه الآخر أزرق. في الأعلى اسم رو ائي فرنسي مشهور، وأسفله، وبخط بارز مضغوط، عنوانُ الرو اية، وأسفله صورةٌ لكرسي العرش.

فتح الصديق الرو اية، وعلى صفحتها الأولى كتب بقلم أسود: "إهداء إلى الصديق المناضل يوسف". وأسفل العبارة أضاف: "بعض الأفكار سُمُوم وضجيج حين تلتقي. لكن الحياة كلها يَحكمُها مَثَلُ وقْعُ الحافر على الحافر".

قرأت الإهداء أمامه واصطنعت ابتسامة صفراء. فأنا لم أفهم بعد سبب هذا الإهداء. لم أُعِرِ الرو اية أدنى اهتمام. فحين عدت من الأمسية الثقافية إلى بيتي، وجدت زوجتي مستلقية على "الفوتوي" في الصالون. كانت الملاءة مزاحة عن جسدها، ور أيتها مكومة تُقاوم البرد، وفي الوقت نفسه جعلت منه منبها حتى تستيقظ في كل لحظة وترى هل قدِمتُ أم لا؟

عَالجْتُ الباب بالمفتاح، أشعلتُ المصباح، نظرتُ إلى زوجتي وعطفتُ عليها، وأحسستُ بالذنب لأنها تتحمل أن تعيش بقيّة حياتها مع رجلٍ أنَاني يُفضّل أن يعيش العُزلة مع الكتاب على أن يكون اجتماعيا يتبادل أطراف الحديث مع زوجته، وأصهاره، وجير انه...

استفاقتْ ونظرتْ إليّ باسمة مُحاولة أن تفتح عينيها. ابتسامتها تلك كانت مصطنعة؛ فأنا أعلم متى تصطنع ومتى تصدق في مشاعرها.

قامت من مقامها، أخذت بذلتي، ألقتها على المنضدة في الزاوية، ثم حملت حقيبتي و اتجهت بها إلى غرفتي. اقتفيت أثرها، فوجدتها تفتش داخل الحقيبة، ثم أخرجت بعض الكتب التي جئت بها ثم صنفتها في أماكن شاغرة

بين الرفوف. وبينما كانت تفعل ذلك بحركات سريعة، حتى تصطحبني إلى فراشها، وقعت عيناها على الرو اية التي أهداها لي الصديق. أثار انتباهها شكل كرسي العرش الذي يشبه "الفوتوي" الذي كانت ممدة عليه. وحتى لا تناقش الكتاب وغلافه، أسرعت في البحث عن مكان شاغر بين الرفوف.

جردتني من ثوبي، وجردتني من كل شيء عالق بذهني. كانت ليلة مفعمة باللذة والحياة رغم العتمة. النساء يصنعن اللذة متى شئن، ومع من شئن، وكيف شئن. وحدهم الرجال لا يعرفون.

مرت شهور ويوسف يحاول أن يكتب شيئا جديدا في رو ايته. لكنه وصل إلى مرحلة لم يعد فيها قادرا على صياغة جملة مفيدة. الأبجدية لا تسعفه، وكل جملة يكتبها تبدو له غير منسجمة. كل فقرة يرى فيها مائة خلل. يشطب على الورقة ويلقي بها جانبا. يُوسْوس له صوت: "لو عدت إلى ما كتبته في هذه الرو اية سلفا وقر أته، لشطبت على كل حرف، ولتبرأت منه قبل أن تُقْدِم على نشره..".

كثيرا ما نُعجب بما نكتبه في أول الأمر، لكن سرعان ما يظهر لنا النقص الذي يعتريه، والزلل الذي وقعنا فيه. لأن الإنسان، وإن كان عاقلا، ناقصٌ. وليست العتمة سوى دليل على تِيه الإنسان ونقصه حين يبحث عن الضوء.

يواجه يوسف الصوتَ صارخا: "الحياة كلها يشوبها الخلل. فلو عدنا إلى ماضينا، لشطبنا فيه على أحداث عشناها، وشخصيات عرفناها، وأمكنة زرناها فندمنا، وكتب قر أناها، وطرق سلكناها، ومستحضرات

اقتنيناها...لا نندم على ما أنجزناه سوى حين تتضح رؤيتنا للكون، ولمن حولنا".

يتمكن يوسف من إسكات الصوت، لكنه لا يتمكن من تنظيم أفكاره، ولغته، وأسلوبه ليكتب جملة.

يرفع بصره ليجول به بين الكتب في الرفوف، تقع عيناه على هدية صديقه. يستخرج الكتاب بعناية، يمسح عنه بعض الغبار، يفتحه، ثم يشرع في القراءة و اقفا.

ثلاث ساعات، من الوقوف دون أن يشعر، كانت كافية على التهام كل صفحات تلك الرو اية. أسلوب المبدع سلس، أفكاره فلسفية وعميقة، لغته واضحة شفافة ومختصرة. أعاد يوسف قراءة الرو اية جالسا. وكان يقف وقفة تأمل واستغراب عند كل فصل، وأحيانا يحس باختناق شديد، وأحيانا يحس أنه يتجرع سما من هذه الرو اية، وأحيانا يحصل على الترياق. وكان، عند كل فصل، ينزع عنه شيئا من هندامه. ولما أنهى الرو اية، وجد نفسه عاريا.

لقد جردته أفكارها من هندامه، فبدت عورته وسوءته. يا للعجب. "ربنا لا تؤاخذنا بما سوّد البشر منا".

صمت يوسف، ثم سألته مريم: "ماذا كان مضمون الرو اية وفحواها؟". يجيبها في تأنٍ: "كانت نسخة لرو ايتي التي على المكتب".

– كيف؟ تسأله مريم.

- إن رو اية ذاك الفرنسي تطرح أسئلة رو ايتي التي لا تزالُ في الأوراق. كلّ ما كنتُ أناقشه من أفكار، وأطرحُه من حلول تحدث عنه. لم يترك لي مجالا للشك أن أحدنا سرق فكرة الآخر، بل عمله.

شككت أن يكون هو السارق. لكنني تراجعت وبرّأته حينما عدتُ إلى سنة النشر، فوجدته قد نشر رو ايته بسنة كاملة، أما أنا فرو ايتي ما تزال مخطوطة على مكتبي، أُضِيف إليها تارة، وأحذف أخرى.

لما تبين لي أنه قد سبقني إلى الفكرة، وأنه بريء، شكرتُ الله، وحمدته في آن؛ لأنني لم أنشر مخطوطتي، وإلا لاتهِمتُ بالسرقة، والسّلخ من طرفِ النّقاد والدارسين وربما يرفع السماعة، ويركب أرقام هاتفي ويغتصب أذني بتهمة: "أنت لص... أنت سارق. لكنك لست لصا ماهرا بما يكفي لتخفي أثر جريمتك. كان عليك أن تسرق الصغار أولا، لا الكبار".

وربما يُرسل لي رسالة عبر البريد الإلكتروني يهنئني فيها بمهنتي الجديدة: "اللصوصية، وسلخ الأفكار". وربما يدعوني إلى لقاء، أو مناظرة أمام أعين الناس، ويقول لي: "ألق ما أنت ملقٍ، وأخرج ما لديك من سحر أيها اللص، وأنبئنا كيف تسلخ النصوص والأفكار...؟" وحينها سأجدني نكرة أمام الناس. فكل الأدلة ضدي، وأولها تاريخ النشر، والتاريخ لا يرحم أحدا.

إن لذة السلخ لا مثيل لها. لكنني بريء من كل هذه التهم التي وجهتها لنفسي. أعلم أنني إذْ شرعت في كتابة مسوداتي، لم أطلع، أبدا، على رو اية ذاك الفرنسي ولو في الحلم.

لقد حلمت كم مرة بعناوين لرو ايات عالمية ولكتاب كبار تحكي عن مواضيع معينة قبل نشرها. وكنت أفاجأ، دائما، بنبأ صدور رو اية معنونة بما حلمت به. كان ذلك يشكل لي عائقا في حياتي. فكل أحلامي تتحقق. كنت أخال نفسي كائنا بشريا بمواصفات خارقة. لعلي ورثت علم الفراسة، ولعلي أوتيت من الأنباء ما أوتي هدهد سليمان، ولعلي أصبت بخلل في الدماغ؛ فاختلط عندي عالما الحلم والو اقع.

لكنني، مع مرور الوقت، صرت أألف وضعيتي الجديدة. بل صرت أعرف ما سيصدر عن دور النشر العالمية، وصرت أعلم من سيحصد جائزة من الجو ائز العالمية من الكتاب، ومن يتواطَأ مع كُتّاب ودور نشر، حتى تحصد أسماء، دون غيرها، هذه الجوائز بعيدا عن الجدارة والكفاءة.

يكفي أن أضع رأسي الملآن بضجيج الأفكار، والأسئلة، والناس، وحب الوطن، وجروح المعطوبين، وتصادي النصوص حتى أعلم ما سيحدث حولي، ولمن حولي.

إن ما كتبته هذه المرة في مسوداتي لم يكن حلما، ولا أفكارا قرأتها في مقالات أو كتب، أو حكايات سمعتها من أفواه الحكواتيين ذات زمن فطفت على سطح الذاكرة ولما ازدحمت وصارت تحدث طنينا، وألما حادا، أمسكت بها ذات لحظة فأخرجتها كما يخرج مروض أفعى من داخل جحرها، ثم أثبتها على الورق.

كل هذا لم يحصل معي. لكن من سيصدق هذه الحكاية؟ فهم سيقولون، أيضا، إن ما يحكيه هو، الآخر، من أضغاث أحلامه. وما نحن بتأويل هذه الأضغاث بعالمين. لذلك فضلت حرق رو اية الفرنسي وترك صفحة غلافها.

تسأله مريم: "وهل حرقكَ الكتابَ أنساك أفكاره؟".

لم أنسه قط. بل من رماده بعثت هذه الحكاية، التي أحكيها لكم، كما يبعث طائر الفنيق. لما قرأت رو اية ذاك الفرنسي كان عليّ أن أحرقها أو أحرق رو ايتي، التي ما تزال مخطوطة. فقد لاحظتْ زوجتي تقلب مزاجي، وقلة حديثي، وخمود لذتي، وكثرة شرودي، وتقلبي في فراشي. بل كنت أفضل النوم، داخل غرفتي، بعيدا عن زوجتي؛ فلا قيمة لرجل خمدت لذته.

أتحاشى النظر في وجه زوجتي كأنما ارتكبت جُرما شنيعا، وأن كل قو انين الكون، ودساتيره، وقواعده الفقهية والقانونية..قد اخترقتها. كنت أرى زوجتي تعتصر الألم، لكني لم أستطع أن أمد لها يد العون. كل ما أفكر فيه لا يتجاوز مخطوطتي، وعلاقتها برو اية الفرنسي. كنت أبحث عن الحل في أحلامي اللاحقة، فسجنت نفسي في غرفتي ثلاثة أيام، حتى حدث ما حدث، فقتلت زوجتي و ابني.

- ابنك؟ قالت مريم.
- نعم. قتلت ابني قبل زوجتي. وربما زوجتي قبل ابني. من يدري؟
- لا أفهم شيئا من كلامك. فأنت لم تحدثني من قبل عن ولدكما.

- لم أرَهُ. ولم أسمع صوته حتى. كل ما عرفته بعد تشريح الجثة، أنني طعنت ابني وهو ينمو في أحشاء زوجتي.

تنزل دمعتان من عيني مريم، ويصاحبهما نحيب أليم.

- يا لها من لعنة. لماذا يحدث معك كل هذا دون غيرك؟
- لعله ثمنُ الكتابة. فالكتابة نضال، والكاتب يناضل دائما، ولا بد لكل نضال من ثمن قاسٍ يؤديه المناضلون. لابد من خسائروتضحيات جسام.
- لو عاش ابنك لورث القلم. لو عاش لصار كاتبا مشهورا، ولافتخر بأبيه أمام أقران في المدرسة.
- وما الذي بإمكان كاتب أن يورّثه لأبنائه سوى تلك الخريطة الجينية التي تحمل الآلام، والأمراض، وقلة النوم، ككلب يستلذ النوم في أي مكان ويتخذه مضجعا. أحيانا أفكر في الانتقام. فكُل ما حدث لي ولأسرتي البريئة كان بسبب رو اية ذاك الفرنسي. هو، الآن، في فراشه يستمتع مع أنثاه، و أنا، هنا، بدون وجهة، وبدون هوية أعتصر الألم. لكن كيف سأنتقم من شخص بعيد عني بآلاف الكيلومترات؟
- هل حينما طعنك أنت كلّف نفسه عناء قطع تلك المسافة؟
- لم أفهم قصدك؟
- يمكنك اختصار تلك المسافة كما فعل.
- لكن كيف أختصر المسافات، فمجرد التفكير فيها يمزق دواخلي، ويزيدني حقدا على حقد يشل تفكيري وتركيزي؟
- عليك نشر مخطوطتك، ورد الصَّاع صاعين.

- لكن هذا مستحيل. فالناس سيشكون في، وسيتهمونني باللصوصية. وما أنا بلص، وما ينبغي لي.
- الناس! من هؤلاء الناس؟
- القراء..المتلقون..
- القراء؟ وهل تظن الناسَ يقرؤون؟ هل تؤمن ببقاء القراء، اليوم، في عصر غزت فيه اللوحات الإلكترونية العالم، وحلت محل رفوف الكتب؟
- لكنّ الحقيقة مهما طُمست، فإنها تنجلي، والعتمة مهما طالت لا بد أن ينبلج الصبح. فالأمل في القراء كبير. وسرعان ما تنتهي مدة انبهار الناس بالألواح الإلكترونية، ويعودوا لقلب صفحات الكتب.
- مستحيل. ما تقوله محض أمانٍ وأحلام ما أنزل الله بها من سلطان.
- لقد سمعت ذات يوم أن الحافر قد يقع على الحافر، وأن المحدثين قد يسروا على نهج ومسار الأقدمين، وأنهم قد

  يعارضونهم، أو تتلاقى خواطرهم.. الكتب السماوية، مثلا، تتصادى مقاصدها، ومضامينها، وقصصها، وأحكامها..فهل نقول عن هذه الحالة هي الأخرى سرقة؟

عليك أن تتقبل أن تاريخ العلم والمعرفة تاريخ تَلاقُح، وتواشُج، وتصادٍ، وتوالجٍ، وتناسل، وتدافع..يكمل البعض الآخر، والكمال لصاحبه وحده ﷻ، وعظم سلطانه.

إن ما يسرده السُّرَّاد، ويحكيه الحكواتيون، ويصفه الواصفون، وينظمه الشعراء، ويقصه القاصون...لو أفرغناه في إناء واسع، وأزلنا كل فكرة مكررة، ومُمَطّطة، ومعادة، وشارحة، وموسعة، ومعارضة، ومسروقة، ومنتحلة، ومسلوخة..لاستطعنا عَدَّها على رؤوس الأصابع.